في الأدب المقارن

أثر نظام الحكم
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

تمر الأمم في استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم : في الطور الأول تكون أزمة الأمور بأيدي رؤساء القبائل الرحالة أو القريبة العهد بالاستقرار ، وهو ضرب من الحكم أرستقراطي ؛ وفي الطور الثاني تتجمع مقاليد الحكم في يد حاكم فرد يوحد أجزاء مملكة ذات مساحة يُعتد بها وتخوم طبيعية ، وهو نظام الملكية ؛ وفي الطور الثالث يعود تصريف شؤون الدولة في أيدي جميع أبنائها القادرين ، وهو النظام الديمقراطي الذي هو أصلح الأنظمة جميعاً ، إذ هو أدناها إلى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقي الأمة

ومن الشعوب البدائية ما لا تتجاوز الطور الأول ، ومن الأمم ما تقف عند الثاني كجميع دول الشرق القديم ، ومنها ما تصل إلى الثالث كبعض مدن اليونان وروما ، وقد تعود دولة بعد بلوغ الطور الثالث فترتد إلى الثاني ، لنكسة في أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطي وتجعل الحكم الفردي ضربة لازب ، ومثال ذلك روما حين اتسع سلطانها وأفسد الترف أخلاق أبنائها ، فعجز السناتو عن تصريف شؤونها ووقع حكمها في قبضة الدكتاتوريين والأباطرة

وقد عرف العرب الطور الثاني من أطوار الحكومة في جاهليتهم في أطراف الجزيرة ، حيث ساعد خصب الأرض واستواؤها على توحد دولة متسعة وتوطد ملكية قوية ، أما في سائر الجزيرة فظل الطور الأول ، طور الحكم الأرستقراطي ، سائداً ، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما في الحجاز مستوى عالياً من الاحكام ؛ وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقة بقواعد الحكم والاجتماع . تتمثل في قول الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت
فان تولت فبالأشرار تنقاد

وهو تلخيص شعري رائع لنظريات أرسطو في السياسة . وقد نمى هذا النظام في نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التي أدت إلى دوام الخصام بينهم ، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب ؛ وأثر كل ذلك بينٌ في أشعار ذلك العهد التي أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية ، وتمدُّح بالعز والمنعة ، فألى ذلك صرف شعراؤهم قولهم ، ولم ينصرف الشعراء إلى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة إلا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة ، فكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى

فلما جاء الاسلام خرج العرب دفعة واحدة من الطور الأول من أطوار أنظمة الحكم طور الأرستقراطية ، إلى طور الملكية الذي توطدت بينهم قواعده وظلوا في حدوده لا يتعدونه إلى الطور الثالث طور الديمقراطية ؛ ويرجع تمكن الملكية بين العرب بعد تمودهم التشاور في الأمور ورغم حض الاسلام على ذلك التشاور ، إلى عوامل خطيرة أولها مكانة النبي عليه السلام : إذ كان أول حاكم فرد للجزيرة ، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع ؛ وزادهم انقياداً لهذا الضرب من الحكومة اقتفاء العُمرَيْن أثره

بي ... والآن أعترف أني كنت بارعاً ... »

فقال الامين : « بارع ؟ أنت كنت بارعاً ؟ .. لقد عرفتك على بعد عشرة أمتار .. يقول إنه كان بارعاً ؟؟ وأين المغفل الذي يمكن أن تخدعه هذه اللحية السخيفة ؟؟ ... وعلى فكرة ... ألا تنوي أن تخلع الشاربين والحاجبين ؟؟ فأنا أخاف أن يجتمع علينا الأطفال ويتدخل الشرطة وتسوء العاقبة بها »

فنزعتها ، فما بقيت بي اليها حاجة بعد زوال اللحية ، ولكني لم أستطع أن أصدق أن يكون قد عرفني كما زعم بعد أن نكرني أهلي — وأخي على الخصوص . وقد أعياني أن أعرف الحقيقة ، فسكت ... وآليت بعد ذلك ألا أبرز للناس إلا في جلدي الذي خلقه الله لي ...

ابراهيم عبد القادر المازني

فى عدل الحكم ونجاحهما فى الخارج والداخل ، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدينُ ما يزال يجاهد أعداءه ؛ ومن تلك العوامل أيضاً اتساع أطراف الدولة العربية السريع ، حتى عادت إدارتها متعذرة إلا بيد حاكم فرد مطاع ؛ ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عتيدة ما لبثت تقاليدها أن سرت فى كيان الدولة الجديدة ؛ ومنها الصفة الدينية التى ظل يتخذها الحاكمون

لذلك هجر العرب تدريجياً تقاليد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة ، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيد الذى عرفوه ، أو فكروا فيه ، فلم يقم من مفكريهم من نادى بنظام مخالف له ، أو دعا إلى ضرب من الديمقراطية ؛ بل كانت الملكية لديهم هى النظام الطبيعى الذى لا نظام غيره ؛ وظل لسان حالهم قول المتنبى : « وإنما الناس بالملوك » ، وإنما كان أحرارهم يفرضون فى الملك العدل والاصلاح واتباع أحكام الدين وإلا وجب خلعه . وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليد ابن يزيد ، وامتلأ تاريخ العرب بالثورات ، ولكنها لم تكن — فيما عدا ثورة الخوارج الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الاسلام — تمرداً على نظام الملكية المطلقة ، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم ، أو وثبة فرد بفرد ، أو فتكة أسرة بأسرة ؛ وفى ظل هذا ظل هذا النظام الملكى المطلق بلغ الأدب العربى غاية رقيه

أما فى انجلترا ، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثانى إلى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، فأن عزلة الجزيرة أبعدتها عن غمار الحروب التى تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها ، وفرض الضرائب ، وجمع جيش قائم يخمد كل تمرد على مظالمها فى الداخل ويشيد فى الخارج امبراطورية لا يتسق حكمها لغير الملكية ، فلم يتجه الشعب الانجليزى إلى التوسع الخارجى ، ولم يبن امبراطورية إلا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته ، وبنى تلك الامبراطورية تدريجاً ، فلم يستهدف لتضخم فجائى يوقع حكومته فى يد دكتاتور ، وبذلك ظل الشعب غنياً عن خدمات الملكية فى الخارج قادراً على كبح جماحها فى الداخل لقوته وضعفها ، فأحرز عليها النصر الحربى فى كل ثورة ثارها فى وجهها ، بينما كان نصيب الثورات الشعبية فى الدولة العربية السحق العاجل

ترعرع الأدب الانجليزى وقد ثبت النظام الدستورى فى انجلترا بجانب نظام الملكية ، وشهد الأدب تضامنهما أحياناً كما فى عصر شكسبير ، وصراعهما أحياناً كما فى عصر ملتون ، وكان رجال الأدب عادة فى جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء ، وقد عميت عينا ملتون فى دفاعه بقلمه عن الجمهورية فى ظل كرومويل ؛ ولم يصلح ما بين الملوك والأدباء إلا بعد انتصار الديمقراطية على الملكية ، وصيرورة الملكية جزءا من النظام الدستورى ، وشارة من شاراته ؛ وفى ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الانجليزى مبالغ عظمته

فهذا فرق ما بين الأدبين فى هذا الصدد : أن أحدهما بلغ أوجه فى ظل النظام الملكى ؛ والثانى جرى إلى مداه فى ظل النظام الدستورى ؛ ومن ثم نجد الأدب الانجليزى أعظم حرية فى النزعة وأصدق فى التعبير ، وأغنى بالمواضيع ، وأكثر تنوعاً فى الأشكال ، لأن الملكية ليست بخير النظم التى يترعرع فى ظلها الفن الصحيح ، لأنها شديدة الأثرة والغيرة ، لا ترضى من ضروب النشاط إلا بما يتوفر على خدمتها ، ولا تسمح للحق والفن بالذيوع إذا كان فى ذيوعهما تحدٍّ لسلطتها . أما النظام الدستورى فيفسح المجال للمواهب بلا عائق ، ويطلق العنان للحقيقة بلا كابح

فمن شأن الملكية المطلقة أن تخمد الرأى العام فى بلادها ، لأنها « هى الدولة » والرأى لها ، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل إلا بما ترضاه ؛ ومن ثم كفّت الشعب عن ممارسة شؤون الحكم ، وكفّت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع ؛ فعاش أدباء العربية بمنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصفون أحواله ، ومن ثم لم تظهر فى الأدب العربى القصة التى تدرس المجتمع وتحلل دخائل النفس ، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظرياً لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية . أما فى انجلترا فان توطّد أركان الديمقراطية صاحبهُ ظهور القصة الاجتماعية وتعاظم مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى

وفى ظل الملكية المطلقة ذوَى ضربٌ آخر من ضروب الأدب ، هو الخطابة التى لا تزدهر إلا حيث الديمقراطية والمشاورة وحرية الرأى ، فنراها بعد أن بلغت أوجها قبيل الاسلام وفى صدره تخمل تدريجا تحت الملكية التى تستأثر بالرأى

والفعل ، وتبطل كل رأى آخر وكل فعل ، على حين ظلت للخطابة فى الانجليزية منزلتها ، وأنجب البرلمان الانجليزى فى عهوده القريبة خطباء مصاقع ، أمثال والبول وفوكس وبت وبرايت وغلادستون

وفى نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض فى شؤون الحكم ، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا ، يقارفون ضروب المجون فى منتدياتهم ، ويدونون صنوف الهجر فى آثارهم ، ويتبادلون فاحش القول فى أشعارهم ، فامتلأ الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب ، وحتى ترفع ذوو الحسب عن معاطاة الأدب

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبواقا للتمدح بمآثرهم ما صح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على إخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات ؛ وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق الى وهدة الشحاذة والتملق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الانجليزى فى أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكّن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لتبعثرها فى مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنثرها على المرتزقة من الجند والشعراء

وفى سبيل استرضاء الحكام واستدرار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن من جهة ، فأذالوا الشعر وملأوه بالأكاذيب ، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة ، فمدحوا الظالم والقاتل ما دام فى دست الحكم ، وتقربوا اليه بذم أحفاد الرسول ، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء ، وهجا البحترى الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالى ، ومدح بشار العلوىّ الخارج على المنصور ، فلما علم باندحاره حور القصيدة ومدح بها المنصور . وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء ، على حين نرى فى الانجليزية أن شللى لما بلغه امتداح سوذى لملك انجلترا فى ذلك العهد امتداحا متملقا ، كتب اليه يوسعه توبيخا ويجاهره بالقطيعة

وإذا ندرت فى الأدب العربى آثار انتصار الأدباء للشعب ومناصبتهم الملوك دفاعا عنه ، فلم تندر فيه أخبار الخارجين على الحكام طلبا للملك والمجد الشخصى كحكاية تميم بن جميل الذى أنشد بين يدى المعتصم تائيته البديعة التى مطلعها :

بعز على الأوس بن تغلب موقف يسل علىّ السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين الى الملك كالمتنبى الذى خرج فى صباه وظل يتوق الى الخروج طول حياته ، والشريف الرضى الذى باح مرة بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة ، بقصيدته التى أولها :

ما مُقامى على الهوان وعندى مِقوَل صارم وأنف حمىّ

وما كان مثل ذلك ليكون فى الأدب الانجليزى : فالأدباء الانجليز كانوا أشد حبا للأدب واعتدادا بمكانة الفن من أن يهجروها إلى شىء آخر ولو كان هو المُلك ، كما كانوا من جهة أخرى أشد إخلاصا لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا فى اعتراض سبيل الحياة الدستورية التى رضيتها لنفسها ، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفى الذكر

ولتزاحم شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبّه بهم من الأمراء تجمعوا فى المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة ، فلم تفز من أغلبهم بكبير التفات . وقل مثل ذلك فى شتى أبواب الشعر : فما يكاد يكون فى أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو منظر ، أو رثاء أو حكمة أو تفكير فى الحياة والموت ، إلا مرئيا كل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجاريا فى أطواء مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن ، فكانت مدحة صاحب النوال هى الوحى الأول الذى يدفع الشاعر إلى ملاحظة تلك المشاهد وتدبُّر تلك الحقائق

ولاعتماد الأدباء فى معاشهم على صلات الأمراء ، وتوقُّف سعودهم ونحوسهم على رضى الأمراء وغضبهم ، كثرت الشكوى فى الأدب العربى ، وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذما وتقريعا وتفنيدا ، وعزّوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف ، وطال ذمهم لحرفة الأدب ، وما يزاملها من شقاء وحرمان ؛ ولا ذنب للأدب ، وإنما هم صيروه حرفة وما هو إلا فن ، بل هبطوا به إلى ما دون الحرفة فصيروه تسولا . أما فى الانجليزية فنرى جيبون مثلا يسخر مرّ السخر ممن يزعمون أن للأدب أشقاهم ، ويعلن فى صراحة وانبساط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له

وسمير لروحه أعوام تصنيفه ، ثم أناله من بعد ذلك صيتاً وضمن له بعد مماته ذكرا ما كان يستحقه بدونه .

أما من قنطوا من صلات الأمراء من بين شعراء العربية ، وقعد بهم عجز حيلتهم عن الوصول إلى ساحات الملوك ، فاما هجروا الشعر جملة وإما عكفوا على نظم أشعار الزهد ، فغزر ذلك الضرب من النظم فى العربية . وليس التزهيد فى الحياة بأسمى رسالات الآداب ، بل رسالتها الصحيحة الترغيب فى الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة إلى الاستمتاع به .

ولطمع الأدباء فى جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد إلى العاصمة ؛ فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب ، وخمد فى غيرها نور الفنون ؛ أما فى انجلترا فقلما هجر أديب بلده إلى لندن طلبا للحظوة والمال ، بل هجر بعضهم مُقامه بالعاصمة إلى منطقة البحيرات ، فاستقر حيث الجمال الطبيعى والحياة الشعرية والوحى الصادق ، وحيث عرش الطبيعة لا عروش الملكين .

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة فى الحروب ، فكل من أبى تمام والمتنبى وابن هانىء الأندلسى يشيد بانتصار ممدوحه ، وينسب إليه كل الفضل فى تدبير الرأى والاقدام وهزيمة العدو ونصر الدين ؛ أما فى الانجليزية فكان شعراء الوطنية أمثال كامبل وتنيسون وكبلنج يرون فى انتصارات الدولة ظفراً للقومية الانجليزية لا فخراً شخصيًّا للملك ، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات ، وشادوا ببسالة القواد وأمراء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار ، وقلما التفتوا إلى الملك أو خصوه بذكر .

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك ، طلبه الكتاب بالاستيزار والانشاء فى دواوينهم ، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء ، كثيرة البالغة والاغراق ، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر ، كثيرة التلاعب بالألفاظ ؛ وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن الشعراء : إذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية ، حتى إذا ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم ، وكُتُبُ الأدب حافلة بأنباء نكباتهم .

ولا ريب أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبى والتاريخى ، كما تُرجم تراثهم الفلسفى إلى العربية ، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والمقضايا الخيالية التى لا تتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبى حافل بمظاهر الديمقراطية ، وآثار اشتراك الشعب فى حكم نفسه[1] ، فالملكية أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعاً للعلوم التى تدرُسُ ظواهر الكون العامة ، منها للآداب التى تترجم عن مشاعر النفوس ؛ ولا شك فى أن اطلاع الانجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم وتشبثهم بحقوقهم . وهكذا كانت الملكية المستبدة من أسباب حرمان الأدب العربى من الأثر اليونانى الذى استفاد منه الأدب الانجليزى فوائد جزيلة .

فالملكية فى إبان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التى تزدهر فى ظلها الآداب الرفيعة ، أما فى عهود عجزها فهى شر مستطير على الفكر والحضارة عامة : فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال المملكة ، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا ، فكل بلدة « فيها أمير المؤمنين ومنبرُ » ، وظهروا فى جلود الأسود متنفخين ، وأفقروا البلاد بحروبهم ومغارمهم ، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدرون الأدب ، فخيب لديهم رجاء الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح والمبالغات ، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة فى دور ذلك التدهور الطويل الذى دام قرونا .

فالأدب العربى قد شهد الطورين الأول والثانى من أطوار النظام الحكومى التى تقدم ذكرها فى صدر هذه الكلمة : طور الأرستقراطية فى الجاهلية ، وطور الملكية فى الاسلام ، فجاء فى الطور الأول أكثره حماسى عصبى ممجد للقبائل وأبطالها ، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوى المكانة ، وظل فى الطور الثانى مكفوفاً فى حيز الحدود التى رضيتها له الملكية ، منصرفاً عن أغراض كثيرة من أغراض الفن السليم ، وترعرع الأدب الانجليزى فى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، طور الديمقراطية ، فجاء حر النزعة ، متعدد النواحى ، واسع الأفق ، محتفظاً بسمو الفن وتجرده عن المادة ؛ وكان الفرق بينه وبين الأدب العربى ، أن الأخير بلغ أشده فى ظل الحماية والمنحة ، والأول جرى إلى غايته فى ظل الحرية والاستقلال

فمرى أبو السعود

(١) ذلك رأى وجيه إذا ثبت أن هؤلاء الملوك قد اطلعوا على مضامين الأسفار الأدبية الاغريقية فى أصولها (الرسالة)